المنظور الديني صاغ تاريخها بقداسة

"البراجماتية" العثمانية استنزفت "الأندلس"

يتداخل التاريخ بالأسـاطير بشـدة عندما يتم توظيف التاريخ توظيفًـا دينيًّا لخدمة أغراض سياسـية، ونجد ذلك واضحًا في حالة الدولة العثمانية عندما يُعالـج تاريخها من المنظور الديني فقـط، ويكون التركيز على أنها آخر خلافة إسـلامية، ويكون نتاج ذلك تاريخًـا ناصع البياض، تاريخًا مقدسًـا، مع أن التاريخ الحقيقي بطبعه رمادي اللون. لذلك نجد تاريخ الدولة العثمانية لدى كتابات الإسـلام السياسـي ناصع البياض، مغلفًا بحكايات الأساطير، تاريخًا شـبه مقدس، وربما أبعد ما يكون عن الواقع التاريخي الرمادي.

من النقاط المثيرة للجدل في هذا الشـأن مسألة موقف السلاطين العثمانيين من مسألة اسـترداد الأندلس على يد الإسبان، ومحنة أهل الأندلس؛ إذ أشاد البعض كثيرًا بمسألة رسائل أهل الأندلس إلى سـلاطين آل عثمان لنجدتهم من تعسـف الأسـبان، واعتبروا ذلك دليلاً على المكانة الدينية للدولة العثمانية. لكن لا يوجه هؤلاء الاهتمام نفسـه إلى رسـائل واستنجاد أهل الأندلس بمعظم حكام المسـلمين سـواء في المغرب أو المشرق؛ إذ يعني ذلك أن طلب الاستغاثة لم يكن حصرًا للعثمانيين وحدهم، وإنما لشـتى دول الإسـلام، لكن نلاحظ الاهتمام الكبير في إبراز رسائل أهل الأندلس إلى آل عثمان، وكأن الآخرين هم وحدهم حماة الإسـلام.

ونجد من أنصار الإسـلام السياسـي محاولة أيديولوجية واضحة لإبراز شأن آل عثمان في نجدة الإسـلام والمسلمين في الأندلس إزاء اضطهاد الأسـبان لهم، والحق أن هذا الأمر مُبالَغٌ فيه بشـدة وبنم عن هوى وغرض، وأبعد ما يكون عن الواقع التاريخي.

وإذا تصفحنا بعض أهم الدراسـات الأكاديمية عن تاريخ الدولة العثمانية سنجد ما ينقض التاريخ الأسـطوري عن علاقة العثمانيين بالأندلس، ومن أهم الدراسات عن التاريخ العثماني بشكلٍ عام، والسياسـة الخارجية العثمانية علـى وجه الخصوص كتاب الأسـتاذة الألمانية ذات الأصول الشـرقية ثريا فاروقي **"الدولة العثمانية والعالم المحيط بها"**، وأيضًا كتاب المؤرخ التركي الشهير خليل إينالجيك **"تاريخ الدولة العثمانية من النشـوء إلى الانحدار"**.

ثريا فاروقي: تعطلت الحرب المقدسة في العلاقة بين العثمانيين والفرنسيين والبنادقة للمصلحة السياسية والاقتصادية.

ومن بداية دراسـتها تركز ثريا فاروقي على الطابـع **"البراجماتـي"** فـي السياسـة الخارجية العثمانية، حتى أنها تضـع عنوانًا جانبيًّا مثيرًا في هذا الشـأن: **"الشـريعة الإسـلامية والبراجماتية السلطانية"**، ومن هذا العنوان المثير نتطلق لتنقد المقولة التاريخية السائدة في الكثير من الكتابات عن العصر العثماني **"دار الإسلام ودار الحرب"**، وأن دار الإسـلام هي عالم المسلمين، وما عدا ذلك هي دار الكفار وهـي دار حرب. تصل ثريـا فاروقي إلى نتائج مهمة وخطيـرة أن العثمانيين منذ البداية أدركـوا معنى السياسـة وأنهـا براجماتية بحتة، وبالتالي علينا أن نفرق بين سياسة السلاطين التي كانـت براجماتية، وبين تمسـك بعـض العلماء بالمقولـة التقليديـة **"دار الإسـلام ودار الحرب"**. وتشـير فاروقي بـذكاء إلى مسـألة جوهرية في السياسـة وهي التناقض ما بين ما هو معلن وما هو واقعـي، وما هو للاسـتهلاك المحلي والتأثير علـى الرعيـة بالنزعـة الدينية، وبيـن متطلبات السياسة الخارجية:

"كما يتضح من المنظور العثماني، لعب توسـيع رقعة الأراضي الإسـلامية من خلال الحرب على الكفار دورًا رئيسًـا في إضفاء الشـرعية على حكم السـلاطين. في حين أن التوافق بين الحكام العثمانيين ونظرائهم البنادقة وأسـرة الهابسبورج لم يكن نادرًا في الأقاليم الحدودية، فإننا نجد أن المواجهات حظيت بشـهرة أوسـع في كل من المواد الثقافية الشـفهية والمكتوبة... وكان ميل البندقيـة إلى تقديم الاعتبارات التجارية مع العثمانيين على الحرب المقدسـة قد نال قدرًا كبيرًا من النقد اللاذع، وكان ملك فرنسـا فرانسـوا الأول هو الوحيد بين كبار ملوك أوربا الذي أبدى استعدادًا لتحمل الدعاية المناوئة الواسـعة بدخوله في تحالف مع العثمانيين" بحسب وصف فاروقي.

إن دراسـة ثريا فاروقي هنا تأتي على قدر كبير من الأهمية لأنها تنقض المقولات التقليدية الشـائعة في الأدبيات العثمانية عن دار الحرب **"دار الكافرين"**، وأن السياسـة الخارجية للسلاطين العثمانيين في أوروبا كانت سياسـة **"إسلامية"**؛ إذ توضح بجلاء أنها كانت سياسة براجماتية بحتة. وعلـى الطرف الآخر نجد الشـيء نفسـه تخلى أعـدى أعداء الدولـة العثمانية البنادقة وأسـرة الهابسـبورج عن مبدأ **"الحرب الصليبية المقدسـة"** من أجل بقاء المعامـلات التجارية مع الدولة العثمانية، بل يصل الأمر بملك فرنسـا إلى إقامة تحالف عسكري مع العثمانيين ضد دول أوروبية مسيحية، إنها السياسـة والاقتصادية والبراجماتية في أعلى مراحلها.

وبمطالعتنا لوقائع الحرب والسياسـة للسـلاطين العثمانيين من خـلال كتابات فاروقي وخليـل إينالجيك نـكاد لا نجد ذكرًا للأندلس؛ إذ لم تحرك السياسـة العثمانيـة العواطف الدينية وإنما المصالح الاقتصادية أولاً.

خليل إينالجيك: حتى عام 1491 لم يرد ذكر الأندلس ولا مسلميها في وقائع السياسة الخارجية العثمانية.

ومن ناحية أخرى كان آخر سقوط لمعاقل المسـلمين في الأندلس هو سـقوط غرناطة عام 1492م. ويوضـح إينالجيـك جـلاء انشـغال العثمانييـن آنذاك فـي العديد مـن المعارك في الأناضول وشـرق أوربا والمشرق الإسلامي، فكيف يوجـه العثمانيون اهتمامًا إلى مسـألة الأندلس؟ يُطلق إينالجيك على الفترة من 1402م إلى 1526م عنوانًا مثيرًا هـو **"الاحتلام والانبعـاث"**؛ إذ بدأت الفتـرة بهزيمـة مروعـة للعثمانييـن علـى يد تيمورلنك قرب أنقرة كادت أن تقضي على دولتهم، بل أسر السـلطان العثماني نفسـه بايزيد الأول، لذلك انكفأ العثمانيون على أنفسـهم لإعادة بناء الدولة من جديد، واسـتعادة مواقعهم في البلقان والأناضول، ومكنهم ذلك من فتح القسـطنطينية فـي عـام 1453م. وبعد ذلك تركـز اهتمام محمد الفاتح على البلقـان ومواجهة صربيا وضم المورة 1460م، وفتح البوسـنة والهرسك في عام 1463م، كما واجهته مشاكل كبرى في الأناضول بخصوص إمـارة قرامان، هـذا إلى جانب معـارك ضارية في ألبانيا وحصار شكودرا في عام 1474م والصدام من جديد مع البندقية، وفي عام 1480م أرسـل جيشًا إلى جزيرة رودس، ولكنه سـرعان ما توفى في عام 1481م.

وبعـد وفاة محمد الفاتح اندلع تمرد عنيف في صفوف الإنكشـارية وشـبَّ نزاع عنيف على السـلطة بين ابني محمد الفاتح **"جم وبايزيـد"**، وسرعان ما تولى الحكم بايزيد الذي نُصِحَ في أوائل عهده بالتخلي عن سياسـة والده بكثرة الحروب التي أرهقت الإنكشـارية وأثرت على خزانة الدولة. وزاد من تفاقم الأمر قرار أخيه الأمير جم إلى مصر وطلب مسـاعدة المماليك ضد أخيه بايزيد، مما أدى إلى عدة حملات عسـكرية بيـن بايزيد والمماليـك حتى عام 1491م أضعفت -فـي الحقيقة- الطرفين.

هكـذا وحتى عـام 1491م على الأقل لا يرد ذكـر الأندلس ولا مسـلمي الأندلس في وقائع السياسـة الخارجية العثمانية، التي انشغلت بالبلقان ونزاعات الأناضول، فضلاً عن بدايات الصدام العثماني المملوكي.

المراجع:

1) خليل إينالجيك: تاريخ الدولة العثمانية من النشـوء إلـى الانحدار، ترجمة: محمد الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، 2002.

2) ثريـا فاروقي: الدولة العثمانية والعالم المحيط بهـا، ترجمة: حاتم الطحاوي، دار المدار الإسلامي، 2008.